(٢)

الإيمان ميلاد جديد لحياة الإنسان

العدد (٦) جمادى الآخرة (١٣٨٥هـ) أكتوبر (١٩٦٥م)

الإيمان شيء فوق ما يتصور كثير من الناس.

إنه ليس رأيًا في شخص من الأشخاص، أو حكما في قضية من القضايا، أو اعتناقًا نظريًّا لفلسفة من الفلسفات، أو اصطباغًا نفسيًّا بلون من ألوان الفن.

إنه تعامل جاد خطير بين طرفين أحدهما الحي القيوم، وعلاقة تشد المرء من أخفى أغواره وأبرز أحواله إلى من نشَّأه من عدم، ورباه من ضياع.

وكما يلتحق العاطل بوظيفة جديدة تستغرق أوقاته، وتصون حاضره ومستقبله يلتحق الإنسان بركب الإيمان فيصبح ويمسي وهو مشغول بواجبات وضعه الجديد، ووسائل قيامه به ونجاحه فيه.

الرسالات فجر الإنسانية

وقد بيّن الكتاب العزيز أن الناس قبل دعوة الله أشباه موتى، وأن انقيادهم للمرسلين مشرق فجر جديد في أنفسهم وأفكارهم وأخلاقهم ومسالكهم.. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ...﴾ (**الأنفال: ٢٤**).

إن الحياة الحقيقية ليست صورة اللحم والدم، ولا اكتناز العضلات وقوة الحركات.. كلا، فتلك حياة يشترك فيها البشر والسباع والدواب والزواحف، بل لعل حظوظ الأنعام منها أوفر.

الحياة الحقيقية هي هذه الصلة التي تنشأ مع الله بعد معرفته.. هي هذا الانتظام الجديد مع أوامر الله ونواهيه بعد أن أعلن اللسان هذه البداية

بقوله ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ...﴾ (آل عمران: ١٩٣).

أجل، مع هذا الإقرار السمح لا يبطئ المؤمن في الانتقال إلى عالمه الجديد، حيث يسلم وجهه لله وحده، ويتحرك فوق ظهر هذه الأرض وفق ما يطلب منه مولاه.

فهو محكوم في امتداده وانكماشه وحبه وبغضه وسلمه وحربه بحدود الحلال والحرام والثواب والعقاب وطلب الزلفى من ربه، والوجل من طرده..

هذا الإيمان ينشئ حياة جديدة كل الجدة..

إننا نعد الزنجي التائه في مجاهل إفريقية إنسانا متأخرًا جدًّا بالنسبة إلى زميله عالم الذرة في أرقى البيئات.

ففكرة أحدهما عن الكون والحياة تغاير كل المغايرة فكرة الآخر، ولا شك أن مسافة التخلف بين هذا وذاك بعيدة، إن هذا البعد يساوي كذلك مسافة التخلف بين امرئ يعرف الله وآخر يجهله.

الغافل حيوان ضائع

إن ذلك المرء الغافل عن ربه- مهما ارتقى وضعه المادي- حيوان ضائع.. ربما كان حيوانًا ذكيًّا في بعض الأمور، بيد أن جهله بالله هوى به إلى أسفل سافلين، فهو ليس متأخرًا فقط، إنه ميت ولو حلق في أجواز الفضاء.

إن الجهل بالله ظلمة كالحة السواد شديدة الوحشة، ولذلك يقول الله ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

والفارق بين المؤمن والكافر يتضح من هذا الوصف الذي قررته الآية.

فللمؤمن نوره الذي يمشي به بين الناس..

ترى ما هذا النور النابع من حياة الإيمان؟

إنه نور الضمير المشع في حناياه، يعرف به الخير من الشر، ويميز المعروف من المنكر..

وهل يرجح الإيمان ويستحق التكريم إلا بهذه الميزة؟

المقطوعون عن الله لا تلفتهم إلا الحياة الدنيا ومآربهم منها، وما يتورعون عن قتل ولا ختل، ولا إفك ولا غش.

أما الموصولون بالله فهم طلاب كمال وعدل، وعفاف وتقوى.

وما تنتشر البركة في الأرض والطمأنينة في المجتمع إلا في ظلال هذا الإيمان، الذي يشق طريقه في ضمان السماء.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ...﴾ (**فاطر: ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢**).

الإيمان بالله حياة

أجل، إن الإيمان حياة، وقد شبه النبي ﷺ عمل الإيمان في الأنفس بعمل المطر في الأرض «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير... الخ».

وهل سمي الوحي روحًا إلا لأنه يحيي القلوب الميتة، ويبصّر الضمائر الضريرة؟

إن فيصل التفرقة بين الإيمان الصحيح والإيمان المزيف أن الأول يولد به المرء ولادة جديدة ويحيا به حياة رشيدة، أما الآخر فلا يصنع شيئًا.

الأول يتحول قوة دافعة إلى فعل الخير ونصرة الحق، كما يتحول الوقود في الآلة إلى حركة دوارة، أما الآخر فصفر.

الأول يعيد تشكيل الكيان الإنساني على نحو يجعل المرء تابعًا لله في هذه الدنيا، فهو باسمه يصول وباسمه ينطلق. أما الآخر، فالإنسان تابع هواه فحسب.

مطاردة الإيمان المزيف

وإذا كانت الدول تكافح تزييف النقد المتداول بين الناس ضبطًا لقيم الأشياء، وحربًا على البطالين والسراق، فما أحرانا بمطاردة الإيمان المزيف حتى تبقى لليقين الصحيح قيمته وآثاره ومنافعه المادية والأدبية.

ولو عقلنا لعرفنا أن الحفاظ على صحة الإيمان أهم من الحفاظ على سلامة الذهب والفضة وما يمثلهما من أوراق.. ولنسرد من كتاب الله الكريم بعض الدلائل التي تشرح ما نقول.

في الحياة التي ينشئها الإيمان لا مكان للشك وللريبة مهما أظلم الجو واربد الأفق، بل يجب على أهل الإيمان أن يتماسكوا ويصبروا ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ...﴾ (**الحجرات**: ١٥).

ومواقف الإيمان ليست محصورة ولا محددة في مسلك واحد، فما تملي به أعباء الحق يجب الانقياد إليه مهما تغايرت الظروف.

فبعض الناس قد يكلف بالانتقال هنا أو هناك، والبعض الآخر قد يكلف بالثبات في مكانه والبذل من ماله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۖ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (**الأنفال**: ٧٤).

ويستحيل في ظل حياة يقيمها الإيمان أن يسير الخطأ دون نكير يلاحقه

أو يبقى العوج دون نصيح يطارده وإن طال المدى وفدحت التكاليف.

فشيمة المؤمنين- كي يتجنبوا الخسار- التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وقد يفزع بعض الناس من بطش الجبابرة فيستكينون، أو تغريهم طراوة العيش فيستلينون، بيد أن الإيمان الصحيح ينشد رضا واحدا ويقلق من غضب واحد.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ...﴾ (**الأنفال: ٢**).

وهناك من يشغله توطيد مكانته الخاصة عن أي أمر آخر، فهو يريد أن يستبي القلوب بكل ما أوتي من مواهب.

الرياء مهلكة الإيمان

وفي عصرنا هذا شاعت عبادة الفرد للجماهير وعبادة الجماهير للفرد.

أما أن يبصر الإنسان وجه الله فيما يعمل ويترك، ويتحرى ذاته فيما ينفق ويمسك فلا مكان لذلك في نفسه.

وهذا هو الرياء الذي يحبط الأعمال، ويكشف عن خراب القلوب من معنى الخير.

قال الجنيد: لو أن عبدًا أتى بافتقار آدم، وزهد عيسى، وجهد أيوب، وطاعة يحيى، واستقامة إدريس، وود الخليل، وخلق الحبيب، وكان في قلبه ذرة لغير الله، فليس لله فيه حاجة.

والحق أن لصوق الرياء بقلب واستبداده به مهلكة للإيمان وممحقة للمثوبة.

إن الغيث ينزل بالأرض الخصبة، فيكشف عن صلاحيتها للنماء والخير،

وينزل بالصخر فيكشف عن جفاف طبيعته وقسوتها وإقفارها.

وكذلك ضرب الله المثل للمرائي ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ (البقرة: ٢٦٤).

إن الحياة التي ينشئها الإيمان تتسم بالإخلاص العميق والتجرد التام لله رب العالمين.. ولنتجاوز هذه النماذج المتناثرة في وصف الحياة التي ينشئها الإيمان لنقول إن الإيمان عمل حاكم في تحويل الغرائز والعواطف الإنسانية من وجهة إلى وجهة.. الإنسان العاري من أي صبغة دينية أو مذهبية يجوع ويشبع، ويفرح ويحزن، ويغضب ويحلم، ويتكبر ويتواضع، ويحنو ويقسو، ويبأس ويرجو... إلى آخر ما يعتري الطبيعة البشرية البحتة من عوارض لا تخلو عنها أبدًا.

والإيمان المعزول عن هذه العوارض لا يثيرها، ولا يسكنها إيمان مغشوش.

وقد تحدث علماء التربية قديمًا عن ضرورة خوف الإنسان من الله ورجائه فيه وإنابته إليه واعتماده عليه... إلى غير ذلك من أحوال نفسية فاضلة.

وهذا حسن، لكنه تصوير جزئي للحقيقة المنشودة، أو تصوير جانبي للحياة التي ينصب الإيمان سرادقها الرحب.

والتصور في ذلك جاء نتيجة أفهام الناس، وما أحسبه مرادًا لهؤلاء العلماء الكبار.

إننا جميعًا متفقون على أن الإيمان صبر وشكر، وخوف ورجاء.

تمام الإيمان

بيد أن البعض فهم أن هذه المشاعر يدخل بها الإيمان على النفس مع

بقاء هذه النفس على طبيعتها العامة تخاف الله حينا وتخاف غيره حينا، وترجو الله حينا وترجو غيره حينا... وهكذا.

وليس ذلك هو المراد ولا هما تمام الإيمان وخلوصه من الشوائب.

فالمؤمن في تعامله مع الله وتوحيده له وإدراكه لأسمائه الحسنى وصفاته المحيطة يبني سلوكه في الحياة على التفرغ الكامل لمولاه والارتباط المطلق به وحده والتجاهل لما عداه.

وليس التوحيد أن نكفر بأصنام الحجارة، ثم نجعل من المال صنمًا أو الجاه صنمًا أو المرأة صنمًا أو الحاكم صنمًا، ثم نتوجه ببعض مشاعرنا أو كلها إلى هذه الأصنام الجديدة.. فإذا أغلب النشاط الظاهر والباطن لها وإذا أقله لله الصمد!

إننا بالملاحظة العابرة نحس أن كثيرًا من الناس يبخسون الخالق من أحر عواطفهم، على حين يتجهون بهذه العواطف المشبوبة إلى غيره، فأي إيمان هذا؟

وهذا هو السر في أن البعض يزعم أنه يرجو الله مثلًا، فإذا فتشت في سلوكه لم تجد لذلك الرجاء أثرًا.

مـا بـال دينك ترضى أن تـدنسه
وأن ثوبـك مغسـول من الـدنس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجري على اليبس

لقد انهارت حضارات دينية كثيرة لأن العنوان الذي عرفت به يغاير الحقيقة التي تحيا بها.

ويوم يفلت زمام النفس الإنسانية من قيادة الإيمان الصاحي، ويقع في يد الهوى الطائش فهيهات أن يغني عنوان أو تجوز خدعة!

إن المعصية تولد قوية غالبًا، لأن وراءها انفعالات عنيفة، فهل يراد أن يولد الإيمان ضعيفًا لأنه واهي الصلة بالمشاعر الجياشة في النفس الإنسانية؟

إذا لم يكن الإيمان حياة عميقة الجذور في أغوار الإنسان فهو إيمان معلول يحتاج إلى الطبيب كي يصح ويستقيم.

فالتوكل على الله مثلًا يجب أن يكون في نفس المؤمن أرسخ من الاعتماد على السلطة في نفس الجائر المستعلي.

وإيثار الآخرة يجب أن يكون أقوى في نفس المؤمن من اشتهاء العجلين للدنيا.

وعلى ضوء هذا تفهم قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ...﴾ (**البقرة: ١٦٥**).

أما أن ترى الملحد أيقظ عقلًا من المؤمن، وأرهف حسًّا، وأعلى همة، فهذا هو الإيمان الكذوب.

إن المواهب الأدبية تفتق بالإيمان كما تفتق الأكمام عن أزهارها.

وإن الإيمان ليخلق من الموت حياة حافلة بالقوة والنماء جديرة بالبقاء والاحترام.